على هامش النقد

بقية في المعاني والظلال

للأستاذ سيد قطب

قلت في الكلمة الماضية : إن طريقة التصوير والتظليل هي الطريقة التي وردت فيها فرائد الشعر العربي التي تهيأت للشعراء على ممر الأجيال

وقلت : إن طريقة التصوير والتخييل هي قاعدة التعبير في القرآن الكريم ، وأنه تفرد بطريقة التصوير – في هذا المستوى – بين الشعر الجاهلي قبله ، والشعر الإسلامي بعده

وقلت : إن التعبير الذي يرسم للمعنى صورة أو ظلاً ، يخاطب الحس والوجدان ، ويطبع في النفس صورة من صنع الخيال ، وأن هذه الطريقة أقرب إلى طبيعة الفنون من الطريقة الأخرى التي تعنى بإبراز المعاني في الأساليب الذهنية التجريدية

فلعله يكون من كمال البحث في هذا الموضوع أن نعرض نماذج أخرى من الشرق والغرب ومن القديم والحديث ، غير القرآن الكريم – في مستواه الرفيع – وغير الشعر العربي في الجاهلية والإسلام

* * *

جاء في « العهد القديم » – التوراة – كلام عن لسان « الجامعة بن داود » قال :

« باطل الأباطيل . الكل باطل . ما الفائدة للانسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس ؟ دور يمضي ودور يجيء ، والأرض قائمة إلى الأبد . والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق . الريح تذهب إلى الجنوب ، وتدور إلى الشمال . تذهب دائرة دوراناً ، وإلى مداراتها ترجع الريح . كل الأنهار تجري إلى البحر والبحر ليس بملآن . إلى المكان الذي جرت منه الأنهار ، إلى هناك تذهب راجعة . كل الكلام يقصر ، لا يستطيع الإنسان أن يخبر بالكل ، العين لا تشبع من النظر ، والأذن لا تمتلئ من السمع . ما كان فهو ما يكون ، والذي صُنع فهو الذي يصنع ، فليس تحت الشمس جديد . إن وجد شيء يقال عنه : انظر هذا جديد ، فهو منذ زمان كان في الدهور التي كانت قبلنا . ليس ذِكرٌ للأولين . والآخرون أيضاً الذين سيكونون لا يكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم .

« أنا الجامعة . كنت ملكا على إسرائيل في أورشليم . ووجهت قلبي للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السموات . هو عناء رديء جعله الله لبني البشر ليعنوا فيه . رأيت كل الأعمال التي عملت تحت الشمس ، فإذا الكل باطل وقبض الريح . الأعوج لا يمكن أن يقوّم ، والنقص لا يمكن أن يجبر . أنا ناجيت قلبي قائلاً : ها أنا قد عظُمتُ وازددت حكمة أكثر من كل من كان قبلي على أورشليم ، وقد رأى قلبي كثيراً من الحكمة والمعرفة ، ووجهت قلبي لمعرفة الحكمة ، ولمعرفة الحماقة والجهل . فعرفت أن هذا أيضاً قبض الريح . لأن في كثرة الحكمة كثرة الغم ، والذي يزيد علماً ، يزيد حزناً .

هذا كلام قديم ، وترجمته ترجمة رديئة من حيث الأسلوب العربي . ولكن هذا لا يفقده طابعه الفني العالي .

هنا إنسان يفعمه السأم والملال ، ويطويه اليأس والقنوط

للنفوذ الفاطمي سياسياً ودينياً ، وشب المعري وقد امتلأ فكره بعقائد الفاطميين وآرائهم ، وحوى منها الشيء الكثير ؛ فلما نضج واستطاع أن يميز بين المذاهب المختلفة والآراء المتباينة تخلى عن كثير من عقائده وآرائه السابقة التي كانت تسود بيئته وعصره ، وكون لنفسه مذهباً حراً لا يتقيد برأي ولا يتعصب لمذهب دون مذهب . فأغضب معاصريه سواء أكانوا على مذهب الفاطميين أم من جمهور أهل السنة ، واتهم في دينه شأنه في ذلك شأن كل المصلحين وزعماء الفكر الحر في جميع أنحاء العالم

فالمعري لم يكن من دعاة المذهب الفاطمي ، بل لم يكن ممن اعتنق هذا المذهب ، بل كان أشد الناس حرية للفكر ومن أكبر زعماء المسلمين والعرب دعوة إلى حرية الفكر .

(يتبع)

دكتور
محمد كامل حسين
مدرس بكلية الآداب بالقاهرة

obeikandl.com

ولكنه لا يقول : إنه ملول سأمان ، ولا أنه يائس قانط ، إنما يرسم لك صور الحياة والأشياء فى نفسه ، ويدعك ترى نفسه فى هذه الصور والأشياء :

الكل باطل . وحركة الحياة مكرورة معادة ، لا شيء جديد تتفتح له النفس ، ويتطلع له القلب . الأرض قائمة إلى الأبد ، والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق . والريح كذلك . تذهب دائرة وإلى مداراتها ترجع . والأنهار تجرى إلى البحر ، والبحر ليس يملأن ... فالطبيعة هنا — من خلال هذه النفس — يغشيها السأم والملال والتكرار العقيم .

ثم ماذا ؟

ثم هذا هو الإنسان . تقصر كلماته عن التعبير عما فى نفسه ، والعين لا تشبع من النظر ، والأذن لا تمتلئ من السمع ، فهو عبث كله ما يحاول من الكلام والنظر والسمع ، وسائر ما تهم به الجوارح والوجدانات . على أنه ليس هناك جديد تحت الشمس ، كل ما يكون فقد كان . ويزيد عبث المحاولة لأى شيء فى هذه الدنيا أن ليس ذكر للأولين ، وأن ليس ذكر للذين سيكونون ، فالكل ينسى ويطوى فى تيه النسيان ... !

الكل باطل ، والمحاولة عبث ، فالأعوج لا يقوّم ، والنقص لا يُجبر . والحكمة عبث كذلك ، فهى مصدر الغم ، والذى يزيد علماً ، يزيد حزناً

لا شيء إذن يستحق النظر . لا شيء يستحق المحاولة . وما على المرء إلا أن ينتظر فى سأم وملل وضيق ، حتى تنتهى هذه الأيام المكتوبة عليه ، ثم يجرفه التيار فيمضى كأن لم يكن ، ويطوى فى زوايا الإهمال كالآخرين !

هذا صورة نفس ، تلقى ظلها على الحياة والأشياء ، فتطبعها بطابعها ؛ يراها الرائى فتؤثر فى حسه ، وتنطبع فى نفسه ، لأنها نفس إنسان ، لا تركيبة ذهن . وهنا تشترك طريقة الإحساس مع طريقة التعبير ، فى التصوير والتظليل ، وفى إبراز نفس إنسانية من وراء الألفاظ ، ومن بين السطور ، على الطريقة التى فصلناها فى كلمات سابقات

* * *

فى ظل هذه الصورة نقرأ قطعة لتوماس هاردى الشاعر الإنكليزى الحديث : (ترجمة الأستاذ العقاد فى ساعات بين الكتب)

« إذا طلع الفجر ، ونظرت إلى الطبيعة المصبحة ، جدولاً وحقلاً وقطيعاً وشجراً موحشاً ، رأيت كأنما هى أطفال مكبوحة على مقاعد الدراسة تشخص إلىّ . وكأنما قد طالت عليها ثقلة الأستاذ فى أساليبه ، فبردت حرارتها ، ورانت على وجوهها السآمة والضجر والإعياء ، وكأنما تهمس بسؤال كان مسموعاً ، ثم تخافت حتى لا تنبس به الشفاه : عجباً ! عجباً لا انقضاء له أبد الزمان . ما بالنا نحن نقوم فى هذا المكان ؟ أتراها حماقة جليلة قادرة على التكوين ولكنها غير قادرة على الفسد والترسيم . خلقتنا فى مزاج ، ثم تركتنا جزافاً لما تجبى به الصروف ؟ أم تراها آلة لا تفقه ما نحن فيه من الألم والشعور ؟ أم ترانا بقية من حياة إلهية قديمة تموت ، فقد ذهب منها البصر والضمير ؟ أم تراها حكمة عالية لم تدركها العقول ، ونحن فى جيشها « فرقة الفداء » والغلبة المقدورة للخير على الشر مفسدها الأخير ؟

« كذلك يسألنى من حولى وأنا أنا بالمجيب ، وما تبرح الريح والمطر والأرض فى الظلام والآلام كما كانت وكما سوف تكون ، وما يبرح الموت يمشى إلى جانب أفراح الحياة »

ونحن نكتفى هنا بتعليق الأستاذ العقاد على هذه القطعة ، ففيه أقصى ما نبلغ أن نقول :

« إننا نضرب المثل الأعلى للبلاغة الشعرية بهذه القطعة التى تلوح له (يعنى القارئ الذى تهمه المعانى لا الصور النفسية) هزيلة ضامرة لا تساوى بيتاً من ابن نباتة ، ولا شطرة من صفى الدين ! لأننا نعلم أن الشاعر أراد أن يمثل بها « حالة نفسية » تحيك بنفسه ، فمثّلها لنا أحسن تمثيل . أراد أن يصور لنا ملالة النفس العارفة بأسرار الحياة وتواميس الوجود ، فصورها فى سكون لا ادعاء فيه ، وإيجاز لا خلل فيه ، وبساطة يخطئها الجاهل فيحسبها من غثاثة الفضول . فهو رجل نظر فى عبث العواطف وعبث الحوادث وعبث التواميس ، فتولاه الضجر ، ونفرت نفسه ، ثم ثابت إلى السكينة والتسليم — فيم يحزن الحزين ، ويفرح الفرحان ، وفيم ينخدع الناس لهذه الآمال الكاذبة ، ثم لا يزالون ينخدعون بها ، وهم يعلمون أنهم مخدوعون ؟ فى لا شيء ! ... الخ »

وهذا نموذج من التصوير والتظليل ، الذى تتراءى من خلاله « حالة نفسية » تشترك فى رسمها طريقة الإحساس ، وطريقة التعبير

* * *

ونرجع إلى « العهد القديم » فنختار مقطوعة من « نشيد الإنشاد » المشهور :

تقول « شولميت » بطلة هذا النشيد :

« كالتفاح بين شجر الوعر ، كذلك حبيبي بين البنين . تحت ظله اشتهيت أن أجلس ، وثمرته حلوة لحلقى ، أدخلنى إلى بيت الخمر وعَلَمُهُ فوق محبة . أسندونى بأقراص الزبيب ، أنعشونى بالتفاح فإنى مريضة حباً . شماله تحت رأسى ، ويمينه تعانقنى . أحلفكن يا بنات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقول : ألا توقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء

« صوت حبيبى . هو ذا آت طافراً على الجبال ، قافزاً على التلال . حبيبى هو شبيه بالظبى أو بغفر الأيائل . هو ذا واقف وراء حائطنا ، يتطلع من الكوى ، يوصوص من الشبابيك . أجاب حبيبى وقال لى قومى يا حبيبتى يا جمامتى وتعالى . لأن الشتاء قد مضى ، والمطر مرّ وزال . الزهور ظهرت فى الأرض . بلغ أوان القضب . وصوتُ اليمامة سُمع فى أرضنا . التينة أخرجت فجها ، وقُمال الكروم رائحتها . قومى يا حبيبتى يا جميلتى وتعالى يا حمامتى فى محاجئ الصخر ، فى ستر المعاقل ، أرينى وجهك ، أسمعينى صوتك . لأن صوتك لطيف ووجهك جميل

« خذوا لنا الثعالب ، الثعالب الصغار المفسدة للكروم ، لأن كرومنا قد أقملت

« حبيبى لى ، وأنا له . الراعى بين السوسن إلى أن يفيح النهار ، وتنهزم الظلال ، أرجع وأشبِهْ يا حبيبى الظبى أو غفر الأيائل على الجبال المشعبة

ويقول حبيبها الراعى فى مقطوعة أخرى من النشيد :

« ما أجملك وما أحلاك أيتها الحبيبة باللذات . قامتك هذه شبيهة بالنخلة ، وثدياك بالعناقيد . قلت : إنى أصعد إلى النخلة وأمسك بعذوقها ، وتكون ثدياك كعناقيد الكرم ، ورائحة أنفك كالتفاح ، وحنكك كأجود الخمر ، السائغة المرقرقة السائحة على شفاه النائمين !

« أنا لحبيبى وإلىّ اشتياقه . تعال ياحبيبى لنخرج إلى الحقل . ولنبت فى القرى . لنبكرن إلى الكروم ، لننظر : هل أزهر الكرم ؟ هل تفتح العقال ؟ هل نوّر الرمان ؟ هنالك أعطيك حبى . اللفاح يفوح رائحة ، وعند أبوابنا كل النفائس من جديدة وقديمة ذخرتها لك يا حبيبى »

فهنا صورة للحب الفطرى ، كأنما هو قطعة من حب الطبيعة ، يتفتح حين تتفتح ، ويفوح حين تفوح . الحبيب فتىً يقفز من فوق التلال المشعبة كالأيل ، والحبيبة كالنخلة وثدياها كالعناقيد . وهما يبرزان للطبيعة ويتواريان فيها كأنهما من كرومها الفائحة المتفتحة ، أو ظبائها وأيائلها الطافرة . أو يعامها فى محاجىء الصخر وستر المعاقل . ثم :

« لننظر هل أزهر الكرم ؟ هل تفتح العقال ؟ هل نوّر الرمان ؟ هنالك أعطيك حبى ! اللفاح يفوح رائحة . وعند أبوابنا كل النفائس من جديدة وقديمة ذخرتها لك يا حبيبتى »

وهذا منتهى الإحساس بحيوية الطبيعة ، والاستجابة ، كما تستجيب الطبيعة ، وفى إبانها المناسب وأوانها المعلوم . وكل هذا من خلال الصورة والظلال التى يرسمها التعبير للطبيعة وللنفس الإنسانية على السواء . وهى أعلى فى آفاق الفن من كل ذلك بالغزل على طريقة المعانى الذهنية التى تكاد تكون الوسيلة الوحيدة للتعبير فى شعر العذريين وغير العذريين ، فيما عدا الفلتات التى لا تكون القاعدة ، وإنما تكون الاستثناء القليل

* * *

وفى ظل هذه المقطوعات القديمة نتملى قطعة الشاعر الإنجليزية المعاصرة المرموز لها : « لورانس هوب » التى نقلناها فى مقالة سابقة تحت عنوان : « فى غير هذه الليلة » وقد جاء فيها :

لا . حين تشتعى استجابة الحب الكبرى
أقبل على والصباح يرتع فى الأنوار
والبلابل من حولنا مشوقة تصدح بالغناء
بين الورود من حمر وبيض

وبقيتها فى « عرائس وشياطين » وفى عدد الرسالة (٥٧٩)

وقد قلنا فى التعليق عليها هناك :

هذه شاعرة وامرأة ، يبدو فى مقطوعاتها طريقة إحساسها